أبو شبكة ... الشاعر المتمرّد

الدكتورة نجاح العطار

الكبرياء والحب والألم، وشعر كلماته حرائق، والأفاعي فحيح في السطور، والليل والفجر وحلم يترامى على أطراف الأفق، وصلوات، بعد ذلك، وناقوس قرية يدق في دير للراهبات.

ليست هذه صورة للتناقض، بل للانسجام الذي يجمع، رغم التضاد، عناصر وجود كامل، فهو الى الله تارة، والى الشيطان طوراً، لكنه، حتى في الجحيم الذي يقاربه، يظل من مملكة هذا العالم، ومع الثورة المبكرة، انتفاضاً على الظلم، على تشوهات المجتمع، وعلى «قضاة عور قضاة العور». بودلير جديد، قالوا عنه، لكن زهرة الشارون لا تشبه زهرة الشر، فبينهما «مهجة كدموع الفجر صافية»، وبينهما وعي بأن وظيفة الشعر أن تكون صرخة مظلوم، قبل أن تكون حمى عبث، وفي هذه نفسها، غوص الى عمق، بحث عن علة، «فرب أنثى يخون البؤس هيبتها/والبؤس أعمى، فتعيا ثم تنقلب»، ورب سلوك، له من الدوافع الاجتماعية، ما يستوجب لا نقض النتيجة بل السبب، أعني ضرورة قطع شجرة الفساد، لا التلهي بكشط قشورها فقط.

الياس أبو شبكة، وقل وتراً شعرياً، نادراً ما عرفته قيثارات الشعر العربي، لا يمشي في الناس مهرّجاً ولا مأدّاحاً، ولا متسولاً كلمات الثناء. انه الصوت الذي يأتي الطغاة والباعة في الهياكل، سوطاً ونذيراً، مؤمناً أن الزمن في تحركه الى أمام، ينقل الأنظمة معه، وفي حركة التغيير الحتمي، يمشي بالوجود صعدا، وأن على الشعر أن يكون مساعفاً لهذا التغيير، مسرعاً به، عاملا من عوامل حدوثه، لا متفرجاً على تخوم الساح والمعركة دائرة، فالشاعر ما خلق ليكون شاهداً، بل ليحمل وثيقة استئناف ضد ما هو قائم، ضد ماهو راكد، وضد كل المواضعات العقلية والاجتماعية التي خلفها الزمن وراءه، فصارت محطات في متاحف التاريخ.

هذا الغريب الأطوار، الناذر نفسه للخروج على المألوف، الراحل في الأشعة والضباب، الماشي بالعواصف أينما حل وارتحل، ولد في مدينة «بروفيدانس» في الولايات المتحدة، في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٣. . صبيحة ذلك اليوم، كانت غير عادية، في الطبيعة والولادة على السواء. الأم نائلة غصن من عجلتون، في كسروان، ما كانت تدري أن هذا الذي يضطرب نزقاً في أحشائها سيكون شاعراً موسوماً بخاتم ملك حيناً، وخاتم ابليس حيناً آخر. حملت به في زوق مكايل، على ربوة قرب جونية، وسافرت مع زوجها يوسف أبو شبكة الى الولايات المتحدة في رحلة وصفت بأنها للترويح عن النفس. ما كادت تقدر أنها ستلده في الغربة، لكن الوليد الذي سيظل في غربة نفسية عمره كله، شاء ان يرى الدور هناك، وأن يرحل جنيناً ووليداً، عبر المحيطات، هو الذي من نسغ جبل وبحر كان، فلما انتهت الرحلة عاد به والداه الى بيتهما في «زوق مكايل» في بناية تدلّ على يُسر صاحبها، فحيطانها مدهونة، وأرضها مفروشة بالبلاط الرخامي، وغرفها واسعة عالية، والدار فسيحة، معممة بالقرميد الاحمر، تطل على البحر، وتصغي الى اغنيته الأبدية، يملكها وحيه في قومه، له تجارة وأرض لا في لبنان وحده، بل في السودان أيضاً.

هنا، في حياة العباقرة والمبدعين، لا تستقيم المساطر التي يقيسون بها الأحياء. تتكسر الموازين والمعايير كلها. وكما النظرية الأدبية شيء هامشي في صفحة الابداع، كذلك النظريات التربوية، شيء هامشي على جوانب عيش مجنون، لا يخضع لعلة ومعلول، ولا تملك، حياله، أن نردّ ألماً الى مرض، ولا كآبة الى اعياء، أو مزاجاً الى نشأة، فثمة، عند من ينشئون الوجود كلاماً، مصادر مجهولة، دوافع غريبة، لا تملك حيالها الا أن نسلم أن العبقرية نتاج ظواهر خاصة، رغم ان الموهبة نتاج عمل كما قال تشيكوف، أعني بالعمل، والوسط، والوسيلة، يمكن ان تحيا، كما يمكن، دونها، أن تموت.

أبو شبكة شبّ مرفهاً، منعماً، في عائلة ميسورة، لكنه، في الآتي القصير من العمر، شكا الألم والكآبة، وضج بإهابه، وبمحيطه، وتمرد على كل شيء، ولم تخمد جذوة «الطين في الطين»، الا وقد أنضجتها نيران ذات ألوان من الشقاء، وذات سعير، في النفس والقلب واليد، وذات أشواق في الملاغم والكلمات، فكأنه عاش ليحترق وليحرق، وليهدم ويهدم في آن.

لقد شاءت الأقدار، في قسوة غير متوقعة على الشاعر، أن يموت الأب، يوسف أبو شبكة، اغتيالا بين بور سعيد والخرطوم، وهو يقصد العاصمة السودانية، ليتفقد املاكاً له هناك، ثم لا تلبث الأم، نائلة، أن تموت أيضاً، وتأتي مظلة من ضباب، فيها مطر شقي، ورعد وبرق، وفيها سواد فحمي، فتخيم على البيت الأبوي.

وكان الأب ذا تأثير كبير على الشاعر، وهو يهدي اليه مجموعته الشعرية الأولى «القيثارة» قائلا: «كنت في العاشرة من عمري يوم توارى وجهك اللطيف الى الأبد، وكنت لا أزال أدفأ بين جناحيك، وها أنا اليوم في الثانية والعشرين، في عهد الشباب، في عهد الجهاد والألم. . أفتش في بلادي فلا أجد نصيراً، ولا أحد يدرك مبادىء نفسي وما طبعت عليه، الا فئة قليلة، هي مثلي في آلامها وبلاياها».

ولم تكن للشاعر سوى أخت تدعى فرجيني، سيكتب لها أن تعيش في بيت الاسرة المهجور، ذاك الذي كان معمماً بالقرميد، وفيه مزود بقر شعري، اذا لم ترتفع فوقه نجوم، فان شاعرية ستنبثق منه، تضيء النجوم ذاتها، وسيكون هناك، من حكام لبنان، ألف هيرودس يطلب دم الطفل، لا ذبحاً بل قتلا عن طريق الصبر، عن طريق ظلم تحداه شاعر هو صنو مايا كوفسكي، الذي تعجل القضاء على الشر، فكان الشر رصاصة من مسدسه، كما كان الشر سرطانا خبيثاً في رئة صاحب «أفاعي الفردوس».

لقد أصيب الشاعر بصدمة، بعد اغتيال والده وموته المبكر، تحولت مع الأيام الى نوع من كآبة دائمة. وفي العام الدراسي ١٩١١ ــ ١٩١٢ دخل مدرسة عينطورة، بعد ان درس في مدرسة ابتدائية في زوق مكايل، فقبل في الصف التاسع، وبقي في عينطورة ثلاث سنوات، أعلنت بعدها الحرب العالمية الأولى، فانقطع عن الدراسة، ثم عاد الى مدرسة عينطورة في العامين ١٩٢١ ــ ١٩٢٢، وأمضى سنتين، طلق بعدهما حياة التلمذة بعد أن أنهى الصف الرابع الفرنسي والثالث العربي، لخلاف بينه وبين أحد الأساتذة، لكنه كان قد أتقن اللغتين معاً وبتفوق.

انني أنفر، في التعامل مع الشعر، من أن تكون الحكاية أداتي، ان أذكر في سرد مشوق أو ممل، سيرة حياة، وأختم دفة الكتاب. لا. الشعر الذي هو كوكب وحده، في فلك وحده، يحتاج الى مرصد ما تعارف عليه بشر، لأنه العين السحرية التي وحدها ترى سحر السحر، وتقنص من الهنيهة جزءها المضمر، وهذه العين النسرية التي يحتاجها الناقد والدارس، يعيشها وهج الشعر، وعندئذ تتلمس الاشياء تلمسا، بأنامل مضيئة، تخترق السطح الى القاع، وتخرج مثقلة بدراري البحر.

على أن أنامل الدارس التي يتلمس بها سيرة شاعر، لا تستطيع، في الاخلاص للصورة، أن تأتي بمثلها. ومن الخير أن الياس أبو شبكة قد رسم لنفسه صورة هيكلية بالكلمات فقال: «قامة رقيقة منتصبة، جبين بين العريض والمعتدل، ابتدرته الغضون منذ عشر سنوات، وتسنّمت ذروته شعور مشعشعة ثائرة، كأنما هي نموذج لما في الصدر من براكين. . بعيد ما بين الحاجب والحاجب، وأنف كبير، وخدان هزيلان، الا اذا ضغط الطوق على العنق فيستمدان من هذا الأخير بعض السمنة. أما بشرة الوجه فتتحير بين السمرة والحنطة، وتطفو عليها سحابة من

شحوب. واذا انحدر نظرك عن رأسي، بصرت بكتفين ترتفعان تارة وتهبطان اخرى، كأنهما موجتان في بحر هائج».

عارفوه يقولون عنه انه لم يكن هادئاً طبعاً في المدرسة، بل غريب الأطوار، ثائراً يتبع هواه، يعنّ له مثلا ان يتأمل زرقة البحر الصافي، خلال الغابات، فيفعل ولا يتردد، غير آبه بالقانون المدرسي وبالنظام، ولطالما أثار تصرفه هذا نقمة معلميه، فأنّبوه وأنّبوه، ولكن على غير طائل، لأن الشاعر المتمرد بطبيعته، لم يكن سهل القياد. ولئن انقطع عن المدرسة، فهو لم ينقطع عن الدرس، بل واصله، فطالع الأدب الفرنسي الرومنطيقي، وتعشق الفرد دوموسيه، ولامارتين وغيرهما.

يضيفون انه كان قوى الثقة بنفسه، وفياً لأصدقائه، متكبراً حتى العجرفة، لا يشكو أمره اذا ساء، ولا يتبرم بحظه اذا عبس. تظهر أنفته في أدق تصرفاته، في مشيته، في شموخ رأسه، في وقع قدميه وفي وقفته على المنبر، وقد جعلته أنفته هذه يترفع عن المادة، فلا يعفّر جبينه لامرىء مهما علا قدره، ولهذا عاش فقيراً قانعاً بفقره، محتقراً صغار النفوس وان عزّوا. عاش متألماً، متمرداً لا يعرف للاستقرار طعماً ولا للانضباط معنى «لا يعرف متكأ غير عصاه، ولا أنيساً غير ظلمة لياليه، ولا مذبحاً غير مذبح الشعر يصلي أمامه».

ويقول بطرس البستاني في مجلته «البيان»: «ما كدت ألقى الياس أبو شبكة لأول مرة بعد أن صار من أصدقاء «البيان» الا تجلّت لي نفسه بكآبتها وانفعالها وبراءة كبريائها، ولا أذكر أني رأيته مرة يضحك ملء فمه ضحكة غبطة وارتياح».

وكان ميخائيل نعيمة يرى في «افاعي الفردوس» تحفة نادرة، وقد قال في حديث له عنها: «دين الشاعر ما كان يوماً رياء، وعزة نفسه التي ما عرفت الزلفى، وعبقريته التي ما انحدرت يوماً الى المستنقعات، كل هذه كانت تأبى عليه التمرغ في حمأة الشهوات الخسيسة».

أما مارون عبود فقد قال عنه: «.. في خلقه اباء حتى العنجهية. يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلالة، في أحشائه آلام متقدة، آلام من الحب، آلام من أعباء الحياة. حب مجنون يشمخر كوقيد البلان، يتعالى حتى يدرك السقف، ثم يهبط رويداً رويداً..».

ان هذا التمرد المتوهج، الذي لا ينطفىء حتى يتسعّر، يعطي ذلك الجسد مشبوب العاطفة، صفة البركان الدائم، لهذا نجد كلمات النار، اللهب، الحرائق، البراكين، الجحيم، السعير، الديجور، تتردد كثيراً في شعره، وخاصة في «أفاعي الفردوس»، فهو يعتصر الكلمة من قلبه، في انفعال عالي التوتر، كأنه الشحنة الكهربائية التي يكون من تفجرها الرعد والبرق.

وفي ممارسة تلك الكبرياء العنيفة التي تضطرم في صدره، والتي صوحت عمره ثم اختصرته اختصاراً مفجعاً، كان يعجب ببيت ابي فراس الحمداني:

اذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

كما كان يردد قول شوقي: «يا ليت شعري هل قلت الذي أجد!» لشكه في أنه استطاع ان يصور معاناته، تلك التي استشعرها عذاباً في الحب، وشقوة في السلوك، وخللا في النظام الاجتماعي، ونفرة من الزلفى والتدليس، ومقاومة للظلم، ومعاداة مكشوفة للظالمين.

لقد كان في حرب مع محيطه، وغربة في بيئته، الا ما كان ذا علاقة بالطبيعة، وبالعامل، والفلاح، اي الناس البسطاء، الكادحين، ولم يكن يوماً في صلح مع المواضعات الاجتماعية المتخلفة، او مع التقاليد السلفية، ولعله لم يعرف الصلح مع الواقع، في سعيه الى جعله واقعاً أفضل، عن طريق الموقف الشعري، والموقف السياسي معاً.

من هنا، عُدّ أبو شبكة رومانطيقياً ثورياً بغير شك، استطاع بثقافته العربية والفرنسية، ان يطور الرومانطيقية العربية، في شعر يُعدّ تجديداً في الشعر العربي لعصر النهضة العربية، كما كان شعر أبي نواس تجديداً للأغراض الشعرية في العصر العباسي. وتبلغ نزعته التجديدية أن تكفر بنفسها من جهة، وأن تثور على نفسها من جهة أخرى، فهو يرفض المدارس والمذاهب الأدبية كلها، «لأنها لا تعيش، كما يقول، الا على هامش الأدب، كما يعيش العرض على هامش الجوهر، او كما يعيش الديكتاتور الزائل على هامش الأمة الأزلية. ان الشعر، بالنسبة اليه «كائن حي، تحتشد فيه الطبيعة والحياة، فلا يقاس ولا يوزن» وفي هذه النظرة، صبوة سباقة الى الخروج عن عمود الشعر العربي، وطموح الى ذاك الجديد الذي جاءنا به الشعر الحديث منذ مطلع النصف الثاني للقرن العشرين.

وقد دحض الشاعر امكان تحديد الشعر بالطريقة الفلسفية، واعتبر ذلك شكاً في الشعر نفسه، ما دام المرء لا يلزم جانب التفلسف الا عندما يخالجه الشك، واعتبر الوجود الحقيقي وجود الماهيات، والشعر قوة مجهولة غامضة، الشاعر وسيطها، لأن «للنفس اويقات تصفو بها، فينعكس عليها اذ ذاك، من الطبيعة، جمال محجوب، صعب التحديد، يجب ان نكتفي منه بما يهتف في الشاعر من أسرار، فيبوح لسانه بالمعاني الشريفة» وفي هذا، كما ترون، ايمان بنظرية الانعكاس في الأدب، لا الانعكاس الخارجي، بل الانعكاس في الذات، التي عنها يصدر الابداع، وهي نظرية تقدمية قال بها كبار الفلاسفة الاشتراكيين.

ان المقدمة التي كتبها ابو شبكة لديوانه «أفاعي الفردوس» بعنوان «حديث في الشعر» تنم لا عن تمرده فقط، بل عن عمق ثقافته أيضاً، والنقاد ما زالوا يعتبرون هذه المقدمة، من أجل ما كتب حول الشعر، ومن أصح النظريات التي تنتهي برفض الوحي الشعري، والايمان بالواقع الذي ينعكس من الماهيات، ومن الطبيعة المؤنسنة التي هي مصدر كل فكر وجمال.

وسنسرف على أنفسنا اذا نحن تتبعنا، عرضاً ومناقشة، آراء الشاعر ونظريات الفلاسفة حول الشعر نفسه، فغرض هذه المحاضرة ان تتحدث عن الشاعر المتمرد، بلمحة عن حياته، ولمحة عن شعره، ولمحة عن مواقفه النضالية ضد الانتداب الفرنسي، وطغيان حكام الانتداب في النصف الأول من قرننا هذا، وهي الناحية التي أغفلها النقاد، التقليديون، لخوفهم من أن يضطروا الى الاعتراف بأن للشعر، كما للفن كله، وظيفة اجتماعية، وأن يكون شعر «ابو شبكة» نفسه من ادلتها البارزة.

يقول الناقد اللبناني محمد دكروب في كتابه «جذور السنديانة الحمراء» نقلا عن البيان الاعلامي «لحزب الشعب اللبناني» الذي كان الشاعر من مؤسسيه: «.. ثم ألقى الرفيق الياس أبو شبكة قصيدة عنوانها «العامل الثائر» وصف بها العمال وصفاً مؤثراً استعاد الحضور أبياتها مراراً بالتصفيق».

كان ذلك في الأول من أيار عام ١٩٢٥، وبمناسبة أول احتفال بعيد العمال في لبنان، وقد وصف المؤرخ التقدمي اللبناني المرحوم يوسف ابراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوار» جو الحفلة والقصيدة بقوله: «وان الشاعر الخالد الياس أبو شبكة، رحمه الله، كهرب الجو وهو يشير الى كبار الموظفين البلديين الزاحفين في خدمة المستعمر، ويزأر في وجوههم:

فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة
تمشي أظافرهم على أكباده

(يعني اكباد الشعب)، الى أن يقول:

من يسترق قوماً يعيش بما لهم
فلتبصق الدنيا على الحاده

ويضيف

يا عاذلي ليس اعتقادك محكماً
بالشاعر الباكي على أمجاده
فالشعر، لو أدركت، وحي حقيقة
والشاعر الرسام طوع قياده

بعضهم، في محاولة للطعن في الشعر اذا اقترب من السياسة، وفي الشاعر اذا التزم النضال الوطني والاجتماعي، يريدنا أن نصدق ان الفن يضارّ من الفكر، بل ينكر عليه احتواء المعاني، كأنه يجرده من ماهيته، ويجعله أثيراً لا يدرك. وقد أثبت ابو شبكة، والجمالية في شعره عالية، أن الشعر يقال في جميع الاغراض، ويحتفظ بجماليته اذا كان صادقاً، ونحن تمسنا في قصائد هذا الشاعر السياسية شحنة شعرية، تبلغ من التأثير أنها توقظ، وتفجر أحياناً، أحاسيس وطنية وانسانية في المتلقي، تجعله يعيش ما يسمع عيشاً وجدانياً كاملاً. وقد قال ابو شبكة شعراً سياسياً طوال حياته، ولم يكن شعره هذا أدنى في مستواه من شعره الغزلي، بل من شعره الآخر البالغ الروعة في «أفاعي الفردوس»، وقد نشر قصيدة بعنوان «الحر» في مجلة الطريق اللبنانية في ١٩٤٣/٧/١، يوم كان هتلر يجتاح اوروبا كلها، ويهدد الشرق العربي في زحف قواته من العلمين. قال في هذه القصيدة:

لبيك يا قلب، ماض فيك ناداني
خبأت في عطره حبي وايماني
أيام كان الهوى الغرّيد يضحك بي
ويرتمي مرح الدنيا بألحاني
وكان للناس آمال محبرة
تفككت عن كلاليب وأرسان

ثم يصف حواراً بين الانسان الحر والطاغية، يهدد فيه هذا الأخيرُ ويتوعد، فيقول له الشاعر:

خفف عتوك واغسل قلبك الجاني
للظلم يوم وللمظلوم يومان
عرش العتي على بركان منكره
شتيمة رضمت في قلب سكران

وفي ختام القصيدة يسوق هذا النذير الذي يتحدى الطاغية، غير آبه بالموت الذي هو نهاية كل حي، وسيان جاء اليوم أو غداً. يقول له:

أما سمعت هبوب الريح؟ان له
صدى تزحّف اشباح وأكفان
فدمدم الحاكم الغضبان وارتسمت
عليه أشباح غيلان وحيتان
وصاح: ان يك ذا حدٌّ لسانك بي
فلي لسان عليه الموت حدّان
فحملق الحر في العاتي، وقال له:
أقضي غداً أو أموت اليوم سيان
فكل ما أبتغي ألاّ تقاطعني
دعني أكمل دفاعي أيها الجاني

وتأتي الذكرى السابعة والعشرون لثورة اكتوبر، عام ١٩٤٤، مضاءة بوهج النصر على الجحافل الهتلرية، فيلقي ابو شبكة قصيدة بعنوان «الثورة العظمى» في حفل كبير في بيروت، يقول فيها:

هذي الروائع من ذاك اللظى خُلُق
ما أضعف السيف حين الخُلق يُمتشق
ما في الحديد ولا في النار منتصر
كلاهما في لهيب الحق يحترق
الله أكبر، كم في الفكر من شعل
حذار في ظلمه أن تبرُق الحَدَق
هذا الشباب رضاع الحق في دمه
فكيف يسلم من في عرقه رَنَق
مضى الى المجد لم يُشهد له مثل
ولم تُشقّ لإنس مثله طُرق
بطولة حارت الدنيا بروعتها
أسكرة هي في النيران أم شبق؟
هم الصعاليك أقصى المستحيل لهم
فلو أقام بأحلاق الردى، مرقوا
في كل جبهة صعلوك بدا ملك
وكل أمنية منه بدا شفق
بوركت يا نهضة للشعب ثائرة
هذي الروائع من ايمانها عَبَق
ان البقاء على الايمان مرتكز
الأقوياء مضوا والمؤمنون بقوا

وفي ٢٤ نيسان من عام ١٩٤٦، يفجع الأدب العربي بالمفكر والناقد الكبير عمر فاخوري، صديق الشاعر الذي كان مريضاً، والذي سيموت بعد أشهر من ذلك، فينهض الياس من فراشه، ويذهب الى حفل التأبين، حيث يلقي قصيدة تعد عمارة شعرية، يحمل فيها على الأدب المصقع، والفلسفة التي تزهق الروح، والشاعر الذي يشبه شعره نقيق الضفدع، ويتحدث عن مراحل تطور عمر فاخوري، وأيام الحرب التي تحدى عمر فيها الفاشية، وترأس عصبة مكافحة النازية والفاشية في سورية ولبنان، ويقول:

ونبهه صوت من الروح صارخ
فتى النور ماذا أنت بالنور صانع
أحين يرى الطغيان في الأرض عائثاً
ينام الأديب الحق أو يتسكع؟
فكشر عن ناب ضحوك تخاله
لظى جمرة من فحمة الليل تفرع

الى ان يقول:

أخي عمر الشاوي على الحب والرضى
لقد أورق الحلم الذي كنت تزرع
كتابك مفتوح ووجهك ماثل
وقبرك منشور الندى متضوّع
ويا وطناً بالحب نكسو أديمه
فيحرمنا حتى رضاه ويمنع
أكذب نفسي عنك في كل ما أرى
وأسمع أذني منك ما ليس تسمع

وكما كان، في الكفاح ضد المستعمرين والطغاة، ثائراً، كان في حبه للمرأة ثائراً أيضاً. ان ديوانه «غلواء» ينطوي على حب مجنون للمرأة، يكاد، لجنونه، ان يصل بحبه لها درجة العبادة. واذا كان في افاعي الفردوس قد تصور المرأة الخائنة، تنفث في لحمه ودمه سمها الزعاف، فإنه يعتبرها أيضاً أماً وحبيبة، «اذا مرّ طيفها مر الطهر والأدب» وهو، في أفاعيه، يعتمد اساطير من التوراة، مثل قصة شمشون، وسدوم وعمورة وغيرهما، فكأنه، اذ يتحدث عن الآخرين، يتحدث عن نفسه، في هذه الأشعار التي كانت فتحاً في الشعر العربي الحديث كله.

يقول جورج غريّب، في كتابه «الياس ابو شبكة» ان «ثورة على الباطل، على الضلال، على الشهوة، تندلع في كل قصيدة من قصائد «افاعي الفردوس»، فيضمحل باندلاعها الباطل ويصبح حقاً، وينصهر الضلال فيمسي هدياً، وتنصهر الشهوة فتصير عفة ومحبة».

ان المرأة «وردة» التي تعيش في «غلواء» هي نفسها في «أفاعي الفردوس». تغدر بشمشون، وتتقلب في أروقة الجحيم، وتقيم الصلاة الحمراء، وفي النهاية تمر بالكوخ العفيف الذي يحتضنه الربيع، والطهر، والرفيف الشاعري الذي لا أحلى ولا أندى.

ولعل قصيدة شمشون، وكلكم يعرف الأسطورة، هي أجمل قصائد هذا الديوان، وأقواها، وأكثرها إحكاماً، في الغرض الشعري الذي يرى في المرأة دليلة ويخاطبها قائلاً:

ملّقيه بحسنك المأجور
وادفعيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليلة افعى
كم سمعنا فحيحها في سرير
أسكرت خدعة الجمال هرقلاً
قبل شمشون بالهوى الشرّير
والبصير البصير يخدع بالحسن
وينقاد كالضرير الضرير

وهو يتصور الدنيا سجناً، لا من تشاؤم، فعل المعرّي، بل من ضيق بالزمن، بالرتابة، بالمشاعر المتوثبة في صدره، لامتلاك الكون في لحظة عناق أبدي. ثم لا يلبث بعد أن يتخلص من الكابوس، أن يسترجع صفاءه، ويعود الى الأمل، مؤكداً ان الجمال، في النفس، هو العنصر الثابت، فالقاذورة ليست من الروح، هذه التي في جوهرها معبد. ان القاذورة، في آخر المطاف، كتلة غيم أسود تبددها الريح التي تمهد لشروق الشمس.

حلمت بدنيا ــ ليتها لا تبدد
لذائذ أحلامي ولا كان لي غد ــ
وأوقظت مذعوراً الى شر هاجس
كأني روح، في جُثام، مشرد
فألفيت دنيا من فواجعها الورى
على بابها لوح من الرق أسود
قرأت عليه أحرفاً خطها اللظى
يروعك منها أثنان «سجن مؤبد»
لكنه سرعان ما يعود، وهو يودع براءته الأولى، الى التغني بهذه البراءة التي يتنور لها قلبه الطفلي:

وداعاً عذارى الحب في خيم الهوى
جمالك محظور وعدنك موصد
فقدتك حتى في أغانيّ مزهري
وكان لشعري منك ما يتجدد
ألا أغلقي الفردوس في وجه شاعر
يضم طنابير الجحيم وينشد
لئن تك نار البغض تلظى بعينه
ففي قلبه النوّار للحب مذود
كذلك يبقى في دجى النفس ثابتاً
جمال له في قبة النفس فرقد

ويقول في قصيدته «هيكل الشهوات» مخاطباً المرأة بفهم عميق، لا للظروف المادية التي تجور عليها فتجنف بها عن سواء السبيل، بل لأن الموبقات التي دفعها اليها المجتمع الظالم تجعلها ضحية هذا المجتمع، مثل آلاف ضحايا الظلم الاجتماعي:

وحق طفلك لم أشمت بامرأة
زلت بها قدم أو غرّها ذهب
فرب أنثى يخون البؤس هيبتها
والبؤس أعمى، فتعيا ثم تنقلب
لي مهجة كدموع الفجر صافية
نقاوتي والتقى ام لها وأب
لي ذكريات كأخلاقي تؤدبني
فلا يخالجني روعٌ ولا كذب
أبقى لي الأمس من غلواي عفتها
ولم يزل في دمي من روحها نسب
لا تقنطي ان رأيت الكأس فارغة
يوماً ففي كل عام ينضج العنب
أما أنا، ولو استسلمت أمس الى
خمر الليالي، فقلبي ليس ينشعب
قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها
وأقرب الاثم لكن لست أرتكب

ويأتي «حديث في كوخ» في آخر الديوان، ليبشر بذلك النزوع الصوفي الى الطهر، الى الحياة الريفية، حياة الربيع حيث يصحو الغصن من نومة الشتاء، ويورق القلب ويزهر، محاولا أن ينسى آثامه، ويعانق وجود آخر، الى الفردوس لا الى الجحيم ينتمي:

سمعتني أقول شعراً شقياً
يستفز الآلام في سامعيه
فتلاشت وتمتمت في سكون (م)

الليل: «الله! ما الذي يشقيه؟»
وبعد أن تذكره بماضيه، وبشعره الذي جدل من الافاعي قلادة تهواها، يسألها ان تترك قلبه الشقي، القلب الذي فرغ من الحب ولا يريد ان يعاوده:

قلت: فيم تفكرين؟ فقالت:
«في يراع سحر الهوى من ذويه
«في يـراع علمتـه الحب حتى
صرت أهواه، صرت من عاشقيه!
فذكرت الماضي وقلت لقلبي:
«انها يـا شقي! تهواك فيـه»

أيها الفجر، يا حبيب الشقيين(م)
ويا مشعل الهوى والشباب
أيها الشاطىء المسرّ الى الموج (م)
حديث العشاق والأحباب
ايها الكوخ، والعيون السكارى
بخمور لم تمتزج بعذاب
لا تجسّي قلبي فلم يبق فيه
من بناء الماضي سوى أخشاب
وانصرفنا، وقبلَ أن أتوارى
عن جمال الشاطي وعن ساكنيه
قلت للمرأة التي ألمتني
حين قالت: «الله! ما يشقيه؟»
«لي قلب أفرغتُه فاتركيه،
في الهوى فارغاً ولا تملئيه!».

هكذا يبقى أبو شبكة، رجل في الفردوس، ورجل في الجحيم، والنفس التي تطوف في أقبية الشر، تعتادها في كل لحظة، اشراقه طهر، مهما تغرب، فانها الى اشراق من جديد. ذلك أنه عرف الحب الحقيقي، حب غلواء، وتزوج بعد غرام مشبوب دام تسع سنوات، من امرأته اولغا التي قلب اسمها الى «غواء» ونظم فيها ديواناً من الشعر، أنكر فيها بعد، ان يكون له ظل من واقع أو حقيقة. لكن النقاد يميلون الى أن تجربته معها هي أحد مصادر شعره العظيم، وان اسمها كان آخر ما تلفظ به حين أسلم الروح.

ففي يوم الاثنين ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧، وكان في المستشفى، وكانت أولغا تبكي في غرفة مجاورة، طلبها اليه، فيما كان يحتضر، فلما جاءت ووقع نظره عليها، أخرج آخر عبارة من شفتيه هي: مسكينة يا أولغا! وأغمض عينيه الى الأبد، أغمضهما ذاك الذي قال:

أعشق الصدق، لا أقول سوى الحق م
ولو جار في الحياة عليا
في فؤادي القوي روح آله
ولو اني ولدت من أبويا
فالسماء التي أنارت شبابي
وضعت مهجتي على شفتيا

لقد شك أبو شبكة حياته كلها. كان نهباً مقسّماً حسب تعبيره، وكان يبحث عن الوثوق بأظافر أدماها صخر اليقين. كان الشك طريقه، وكان القلق يعصف بروحه فلا تكاد تستقر على حال. مع ذلك لم يلعن القلق فعل بودلير. لم يقل عنه انه وحش مفترس، بل تقبله في سبيل ما هو أعز: الشعر! في سبيل الفن الذي لا يكون حين النفس هامدة، منطفئة، على صلح مع ذاتها ودنياها. يرى بعض النقاد أن الشاعر قد أحب غلواء أو غيرها فامتلأ قلبه كما الدن في أواخر الخريف. ترى هل امتلأ حقاً؟ ومن هي المرأة القادرة على ان تملأ قلب شاعر أحلامه الى غياب فحضور. الى موت فحياة، فيما هو يدق طنابير الجحيم وينشد، وفيما هي تسرح يدها الصفراء فوق هوى، «يسيل في مجحريه الجهد والتعب».

التمرد هنا عصفة ريح أبدية، والجسد غصن يلوي به الشك، ويلوي به اليقين، فهو في عذاب التأرجح الى آخر العمر يقول:

الغرام الذي أطال شجوني
حار قلبي به وحارت عيوني
لا أطيق الغرام في ألف وجه
فاذهبي، ما عرفته يكفيني
أخرجيني من مقلتيك وخلّيني
تعالي، في مقلتيك ضعيني
أنا في مقلتيك أسعد.. اشقى
فيهما فاذهبي ولا تشقيني
أنا أهوى الشقاء.. لا لست أهواه،
تعالي، لا، بل دعيني
من تكونين أنت؟ أجهل، بل أعرف،
فامضي عني، ومن شئت كوني

هكذا القلب، وقد صوّحته الآلام، يغدو القلق والشك والخيبة صليبية الذي يمشي به من المهد الى اللحد، وهكذا تنقضي حياة شاعر، هي نفسها حكاية شعرية غير منظومة بعد..

أيها الشاعر. تراك، في قبرك، قد وصلت الى يقين؟(*)

دمشق

(*) محاضرة ألقيت مؤخراً في النادي العربي بدمشق.

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الآداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات (صدرت أخيراً)

- الطاعون - لألبير كامو
- الثلج يشتعل - لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم - لروجيه غارودي